رؤيا خيفة تحققها الايام

بقلم الدكتور واصف

١

في صباح العاشر من شهر تموز من العام ١٩٤٤ نهضت من فراشي وجعلت استعرض بمخيلتي الحلم الرهيب الذي ترآي لي في خلال رقادي . وهذا هو :

شاهدت نفسي جالساً وراء مكتبي وانا أقلب بين يدي مجموعة من الكتب الحديثة . واذا بجرس منزلي يقرع المرة تلو المرة . فأسرعت الى الباب وفتحته واذا بي أشاهد ثلاثة اشخاص يريدون اقتحام المنزل بقصد اغتيالي وكان وراءهم مفوض (كوميسير) فخم الجثة يحفزهم على اغتيالي ويستثير حميتهم . .

وسرعان ما اختطفت عصاتي التي كانت بالقرب مني وأخرجت من جوفها حربة مسننة ورحت أطعن صدور هؤلاء الاوغاد بجنون ، فتتدفق الدماء من صدورهم ، وتنبثق غزيرة قانية من جروحهم فيهرلون متخاذلين وهم يلهثون اعياء ، فأغلق الباب واجيد ايصاده بالاقفال وانا ارتجف من قمة رأسي حتى اخمص قدمي من هول ماحدث .

* * *

وبانطواء هذا المشهد الدامي سيبدو مشهد آخر سواه .

فاذا بي أطرق باب صديقي « جورج ابراهيم حداد » وهو عديل الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية . وبعد انتظار قليل يفتح الباب . وما وطئت قدمي بضع خطوات او درجات حتى انطلقت بضعة عيارات نارية كادت تصيب مني مقتلا . ولكنني لم أصب بأذى

وانقشعت هذه الطلقات عن مدير بوليس بيروت (عارف ابراهيم) ومفوض تحريها (عمر طبارة) . وكوميسير منطقة البرج (محمد علي فياض) . وللحال هجموا عليّ دون سابق إنذار .. فارتددت اليهم . ونشب بيننا على درج المنزل عراك مرعب بطاش .

وما لبثت ان شاهدت (ماجدة) حدّاد ابنة صديقي جورج حـــدّاد وهي تهدو على الدرج حتى بلغت مكاني . واندفعت عليّ وطوقتني وقصدها دفع الاذية عني من هؤلاء المهاجمين . ثم علا الهرج . وساد المرج . وهرع كل من في المنزل : والدها . والدتها . شقيقاتها وسواهم . وعلت الضوضاء وسادت الفوضى . وانبعثت الصرخات . وتعالت الشتائم . وارتفعت الاستغاثات . فاضطرب الحي بأكمله . واندفعت الجماهير كي تستطلع أنباء الواقعة وحقيقتها .

في هذه اللحظة أخرج « محمد علي فياض » مسدسه ورطمني بمقبضه على أم رأسي رطمة هائلة فشعرت اذ ذاك بدوار هائل . وسقطت على الأرض لا أبدي ولا اعيد .

وانطوى هذا المشهد الثاني .

وبانطوائه تبدّى لي (المشهد الثالث) والأخير :

فقد شاهدت نفسي الآن في دائرة البوليس في محلة (البرج) وكنت ممزق الثياب مورم الوجه . مدمي الفم . أتكلم باعياء ظاهر والعرق يتصبب من جبيني بغزارة هائلة . وكانت زمرة عظيمة من رجال البوليس ورجال الشحنة الخفية (التحري) تحتاط بي من كافة النواحي .

وهنا شاهدت (محمد علي فياض) يتناول سوطاً جيد الحبك وراح يهوي به على جسمي فيمزقه تمزيقاً . وعنـــدما أجهده هذا العمل البربري أخذ زميله (عمر طبارة) يكمل

« ليس لنا ان نناقش حوادث هذه القصة حقيقة كانت ام خيالا ، فنحن اذ ننشرها فانما لاحتوائها على عناصر القصة الناجحة الامر الذي نتوخاه في اصدار هذا العدد الخاص .

(التحرير)

مابدأه (فياض) .

وعندما كلت يده من كثرة الجلد اخذ مدير البوليس [عارف ابراهيم] ينجز المهمه بهمة لاتعرف الكلل اوالملل.

وقد شاهدتهم بعد ذلك يشتمونني بكلمات بذيئة يأنف من التفوه بمثلها أوباش الازقة والمواخير .

وأخيراً .. وضعت في سيارة صغيرة ورافقني ثلاثة من رجال التحري الذين كان على رأسهم رئيسهم « عمر طبارة »

وراحت هذه السيارة تطوي بنا الابعاد وتجتاز المسافات حتى بلغت بنا مدينة « حلب » . وهناك كنت أساق من مركز بوليس الى آخر . وانتقل من سجن الى آخر . وكنت أهان وأشتم وأجوع وأعرى وأشقى وتعاودني ذكريات الماضي السعيد البعيد فتهمي عبراتي بغزارة ...

وفي النهاية ساقوني الى الحدود التركية وأمروني ان ادخل اليها ...

وكان رجال الدرك السوري يدفعونني الى دخول اراضي « تركيا » وهم يحملون بنادقهم وفوهاتها مصوبة الى صدري .

فامتثلت وفعلت .

وهنا شردت وكنت بائسا البؤس كله ..

لقد همت في فيافي مقفرة . واجتزت اراضي محرقة ..

في الليل لم يكن لي من فراش يؤويني اليه ..

وفي النهار كنت أهيم على وجهي الى جهة غير معلومة.

لم يكن لدي نقود كي ابتاع لي طعاماً اقتات به .

ولم أجد بين الذين طلبت اليهم ان يقبلوني بينهم اي عطف . الجميع كانوا ذئاباً . والجميع أظهروا وحشية هائلة .

فرحت اذ ذاك اضرع الى الله ان ينهي ايام بؤسي وشقائي ويقبلني في عالمه البهي الدائم السطوع . ولكن هذه الامنية لم تحقق لي ايضاً . فنحل جسمي . وخارت قواي . واضمحلت آمالي . وذوت أماني . وبت ارقب الموت . والموت يشيح بوجهه الحبيب عني ...

وما عتمت ان شاهدت نفسي وانا امتطي ظهر أسدقوي متين العضلات وهو يزأر زئيراً اهتزت منه السهول ورددته الاودية .

وتجاوبت أصداؤه بين شواهق الجبال ...

فاستيقظت وانا مذهول مما تراءى لي في خلال منامي ..

ومضت الايام يسابق بعضها بعضاً . وانقضى شهر تموز .

ثم تسربت ايام شهر آب تقريباً دون حدوث اي مكروه.

فقلت في نفسي : انها أضغاث احلام . وحمدت الله ان حلمي المرعب لم يتحقق ..

ولكن ؟!!! ..

٣

في صباح يوم الاثنين الواقع في ٢٨ آب عام ١٩٤٤ استيقظت في منزل [جورج ابراهيم حداد] عديل الشيخ [بشارة الخوري] رئيس الجمهورية اللبنانية . وللحال استقللت سيارة « تاكسي » وقصدت الى منزلي . وقد رافقني كل من جورج حداد وزوج كريمته جوزف حجار .

وما بلغنا المنزل وحاولنا مغادرة السيارة حتى شاهدنا ثمانية أشخاص في حالة مريبة وهم يحملون (النبابيت) الغليظة فعرفت بالمكيدة . وأمرت السائق ان يكمل سيره حيث تخفر البوليس . وهناك بلغنا المخفر وطلبنا اليه ان يرسل قوة من رجال البوليس كي يلقوا القبض على من يحاولون الاعتداء علي .

فادّعى (المخفر) انه لايمكنه ان يرسل أية قوة الآن لأنه لديهم مهمات غاية في الخطورة ..

فعرفت انه من العبث ان نضيع الوقت في محاجة لاتغني ولا تسمن ..

ولا شك ان القارئ الكريم سيدهش كيف ان رجال البوليس لم يهتموا بمنع الجريمة قبل حدوثها . ولن يصدقوا ماجاء في مقالي فأدلي لهم بكلمات موجزة عن الاسباب والمسببات كي يزول استغرابهم عند اطلاعهم على الحقيقة .

ان زوجة صديقي (جورج ابراهيم حداد) واسمها « ماري حداد » هي شقيقة زوجة رئيس الجمهورية (بشاره الخوري) وكما يظهر ـ ولأسباب عائلية خاصة ـ لم تعجبهم هذه الصداقة .

وقد حاولوا غاية استطاعتهم ان يفصلوا بشتى الطرق ولكنهم لم ينجحوا وباءت مساعيهم بالفشل بل واحاق بهم الخذلان .

وهنا لعبت يد الغايات دورها الرهيب .

وتدخلت الشخصيات الرسمية تريد القضاء على صداقتنا واذا بالنيابة العامة تتدخل بالموضوع وتروح تلقي التهم علي جزافاً . .

ولكنها بعد التحقيق المستمر الدقيق مدة شهور طويلة تلاشت كفقاقيع الصابون .. وقضي على الظلم وضرع وهو مايزال رضيع مهده .

فاستاء من يهمهم ان ابتعد عن هذه العائلة. وارادوا ان يستعملوا الطرق غير القانونية مادام لم ينجحوا عن طريق القانون.

وهنا تدخلت شخصية كبيرة ذات منصب هام في الامن واتفقت مع هنري فرعون وميشال شيحا وبيار الجميل رئيس الكتائب اللبنانية ان يرسلوا أشخاصاً من [الكتائب] ويتربصوا لي امام منزلي. وعند وصولي يتحرشون بي وتصدم من هذا أنني سأدافع عن نفسي . واذ ذاك تتمكن النيابة العامة من وضع يدها عليّ . .

لهذا السبب ياقارئي العزيز رفضت [دائرة البوليس] ان ترسل لي قوة كي تلقي القبض على الاشقياء كما سلف . واذ ذاك أكملنا سيرنا الى منزل [محمد علي فياض] مفوض [كوميسير] منطقة البرج .

ولما كانت الساعة لاتزال باكرة نقد شاهدناه في منزله وبدوره امتنع عن مرافقتنا مدعيا انه ذاهب بمهمة خطيرة ..

وهنا ثارت ثورة أعصابي فأفهمته أنني سأتأكد بان الحكومة هي التي اوعزت لهؤلاء الاوباش ان يحاولوا الاعتداء علي وإلا فما معنى انك ترفض الذهاب معنا لمشاهدتهم بنفسك ؟

ولماذا تمنع رجال المخفر ايضا ؟

واردفت قائلا له :

— إعلم انني سأرفع عليك قضية وأظهر هذه المؤامرة الدنيئة التي من العار ان يريدها اشخاص هم في دست الحكم..

وتوعدته بعمل كثيرات اذكر فيها تمنعه عن الذهاب معي فرضخ مكرهاً .

وماوصلنا الى المنزل حتي شاهدت انا والاخ جورج وجوزف حجار ان حضرة « الكوميسير » يرفع يده الكريمة محيياً بها هؤلاء الاوغاد .

واذ ذاك تمزق ذلك البرقع..وعرفت النيات ..وتكشفت النايات .. فقد صاق خرقي .

وبسرعة هاجمنا هؤلاء الوحوش بضراوة .

ولكنني كنت اسرع منهم بالدخول الى منزلي وايصاد بابي فحاولوا اقتحامه بحضور [الكوميسير] الفاضل وقصدم اغتيالي عمداً [- وزف حجار] ان يخرج الحربة من الحصاة خاصتي — وكان يحملها اذ ذاك — ويطعن بها صدر المجرم المدعو [الياس السوري] وهو رجل [ياور الجميل] . . فجرحه جرحا بسيطا ولم يكن هو المقصود الاول ولم يطعنه الا بعد ان كان الياس المذكور قد شج رأسه بهراوة غليظة .

وهنا وضعت النيابة العامة يدها عليّ مدعية انني انا هو الذي حرض [جوزف] على الضرب . وهذه امنيتها التي كانت تتلهف للوصول اليها .

احتججت . فما الذي الاحتجاج شيئاً ..

لقد سجنت واعتقلت مدة ثلاثة عشر يوماً كاملا .

وحققوا معي في خلالها ثلاث مرات .

ولما لم تستطع النيابة ان تلصق بي أية تهمة أسقطت في يدها.

وتأكد لديها انها لن تستطيع تقديمي الى المحاكمة .

ولكنني كنت في قبضة يدها ..

ففي الساعة العاشرة ليلا في التاسع من شهر ايلول ١٩٤٤ قدم سجن الرمل حيث كنت أقيم كل من مدير البوليس ومفوض التحري — وكوميسير منطقة البرج — وباغوني ان رئيس الجمهورية قد نزع عني الجنسية اللبنانية وهم مكلفون بنفي .. فدهشت وقلت لهم :

— وهل يستطيع رئيس الجمهورية ان يخترق نصوص الدستور وينزع عني جنسيتي ؟ .. فضحكوا وقالوا « الحق للقوة ! »

فقلت لهم :

— بارك الله فيكم وفيه .

وطلبت اليهم ان اذهب الى شقيقتي حيث تقيم في منزل [جورج حداد] كي آخذ منها تودعاً وبعض الثياب ثم لتفعل بي القوة الغاشمة ماتشاء .. وهكذا كان .

فعند وصولنا لم يدعوني أصعد الى منزل الاخ [جورج]

بل طلبوا من شقيقتي ان تنزل كي أحدثها واطلب منها نقوداً فنزلت الشقيقة وبرفقتها «ماجدة حداد» ابنة صديقي «جورج».

وهنا حاولت التخلص من قبضات هؤلاء الذين يشبثون بي . واذا بمعركة رهيبة عنيفة مخيفة تقع في لحظة وتندفع الاجسام وترتفع القبضات لتعود فتهوي على الرؤوس ..

وسرعان ما أخرج [عمر طبارة] مسدسه وحاول اطلاقه عليّ .

ولكن أسرعت (ماجده) فألقت بنفسها علي وامتزجت بي . فأسقط في يد هذا الوحش .. ولم يستطع اطلاقه الا في الهواء للارهاب خوفاً من ان يصيب (ماجده) اوسواها .

وعلى لمعة النيران نزل (جورج حداد) والشاعر حليم دموس الذي كان في تلك الليلة بضيافة جورج .

ثم هرعت شقيقتا (ماجده) ووالدتها وتجمهرت المئات من الاشخاص في مسكون هذا الليل البهيم الذي عكرته تلك الطلقات النارية .

في هذه اللحظة اخرج (محمد علي فياض) مسدسه . وبكعبه اهوى به على رأسي . فدارت بي الارض . او انا الذي درت بها .

* * *

وللعجب الشديد تذكرت في هذه اللحظة الرهيبة الحلم الذي كنت قد شاهدته منذ شهرين تماماً :

فاليوم هو التاسع من شهر ايلول . والساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل . ومثلما مرّ بالقارىء كنت قد حلمته في ١٠ تموز ...

* * *

وفي غمرة الهرج والمرج المدويين غبت عن الوجود لاعود فأستيقظ في مركز البوليس واشاهدهم وهم يتناوبون على جلدي أي كل من مدير البوليس وعمر طبارة وفياض ـ مثلما حلمت تماماً ـ ثم شتموني وأهانوني ـ وفي النهاية أركبوني في سيارة ورافقني ثلاثة من رجال الشرطة الخفية على رأسهم عمر طبارة . ومكثنا طوال الليل ونحن نسير . فبلغنا حلب في الساعة التاسعة من صباح اليوم الثاني وهناك ادخلوني دون

في العيد

للاستاذ صاحب التوقيع

ليلاي هل بعد ان مرّ النوى صوراً
من الحميم تصب الرعب الوانا

نرجو بان نتعاطى الكأس ثانية فنستعيد شباباً مات ظمآنا

إني لانظر فوديه ومفرقـــه يستجديان الهوى براً واحسانا

* * *

ليلى انظري العيد قد بانت طلائعه وقد تمايل كالمخمور نشوانا

والشهد في من عيدين قد مضيا عودتني فيها لطفاً وتحنانا

كم قبلة اتحفتنيها أصائله وكم بكور هفا فيهن قلبانا

وكم ليال لبسنا من غضارتها مطارفاً تنبذ الانوار الوانا

والحب ياليل آوانا لجنتـــه والعيد بالبشر والنعمى تغشانا

لقد ارانا الهوى من بره عجباً حتى تخيلت ان الحب يهوانا

لكنها ساعـــة مرّت على عجل

اوّاه لو صح ان اسطيعها الآنا

النجف : م . جم

وجه حق الى السجن . فمكثت فيه مدة اربعة ايام دون طعام ولا شراب . فرقت حالتي . وكدت اقضي نحبي .

وأخيراً ... قادوني الى الحدود التركية . وهي تقع على بعد ٥٢ كيلو متراً من حلب .

وهناك بعد قرية إعزاز أمروني ان اجتاز الحدود التركية فرفعت عيني اليهم وقلت لهم باحتقار :

— خسئتم فانكم الخاسرون لانني تذكرت انني شاهدت نفسي في (الحلم) وانا امتطي ظهر اسد عظيم فعرفت ان النهاية ستكون لي .

وسأفوز وانتصر بعون الله تعالى .

الهند